

المقامة الباريزيّة

د. حجاج أول محمد

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

حدثنا بديع الزمان التلمساني قال:

جمعتنا في ليلة ليلاء¹، سميطة² صفراء، في وليمة بين الأخلاء، نتبادل الحديث اللطيف، بين اللقمة والرغيف، ومعنا رجل لا أعرفه، غريب أمره.

جسمه نحيل يموت، وجهه شاحب سكوت. زهيد يحبي الخوان كآته شعبان، يعاني من عطب الأسنان. ولما قضينا من الوقت وطرا، ودامرنا³ الليل سهرا، و ذقنا من الفواكه رطبا، و سمعنا من بعضنا خطبا، التفت إليه ربّ البيت، صاحب الخبز واللحم والزيت، طالبا منه إبداء ما في جعبته، حتى نستمتع ببيان صوته. فهزّ الرجل رأسه قليلا، و هسّ متنهّدا قائلا:

" قضيت على وجه المعمورة شوطا، و نقت على الفانية سخطا، فأدركني خيبة أمل في البشر، و حسن ظنّ بالبقر.

و حدث أن رمت⁴ العلم طفلا، و عاودت الطلب كهلا، فوجدتني لا أحمله حملا. أحسست بالعمل يرهقني، و بالإدارة تنهكني، فقلت في نفسي: لم لا آتخذ وقتا للرّاحة، فأجول قليلا في السّاحة، قبل المطاف السريع و الحمام الذّريع⁵.

لذا، سعت إلى تغيير الإطار، راجيا ركوب القطار، ميمّما قطرا من الأقطار، مقتنعا بمقالة الشاعر أفرغ الله عليه سحائب رحمته:

أولو الفضل في أوطانهم غرباء .: تشدّ و تنأى عنهم القرباء

عزمت إذن أن أكون جواب آفاق⁶ , غير ذي ساق على ساق, و تركت أخيراً على الله, فجمعت لوازم السفر, واضعاً حدّاً للكّد و الزّفر. وودّعت الأهل و الخلان, طامعاً في دعة و سلوان, طامعاً في الهروب و لو إلى السّودان, إلى أن ركبت الطّائرة, فكأنّ المطبّة في الفضاء واقفة, و عيون النّاس فيها خاطفة. فاجتازت بنا المروج و البحار, و الأودية و الجبال و الأشجار, إلى أن حطّت بنا في بلاد الإفرنك⁷ , قاعدة الفرنك, أو بلاد الغول⁸ , و موطن ديغول. فأعددت نفسي للرّوح⁹ و التّحوّل, و زيارة الأهل و الأحوال, و أم¹⁰ المعاهد و المكتبات, و ربط الصّلات و المحبّات.

قال نبينا الكريم عليه الصّلاة و السّلام:

"أطلب العلم و لو في الصّين", فوجدت العلم و ألحقت بالصّين, و كلاهما في باريز. و لكن ماهي إلّا أيام, حتّى راجعت ما كان من الكلام, فبلوت¹¹ أخلاقهم, و سبرت أحوالهم, و عرفت طبيعة البلاد, و كشفت عن حقيقة كنه العباد, فخاب فيهم ظني, و ضاع بهم سعبي, و أنا أصف لكم الواقع كما رأيته, لا كما تخيلت, إن شراً ذكرت, و إن خيراً شكرت.

اعلموا معشر الفضلاء أنّ باريز عاصمة محبوبة, حاضرة مصيبة, زرية عجيبة, غنمها لا يحصى عدداً و لا يحدّد نسباً, و كأنّ أبا الطّيب عاين ذلك الحشد في خماره و الشعب في غماره²³ , لما قال:

تجمّع فيه كلّ لسن و أمة .: فما يفهم الحداث إلّا التّراجم

و باريز مدينة مذهلة للأذهان، فاتنة للتفوس، مسكرة للعقول. زخرفها أنيق، جمالها عتيق، متاعها شهيق، شراها رحيق. في كل مكان نبات و شجر، لا يرى فيها وسخ و لا حجر. إذا أمتعتك طرقها طربا، أنهكتك مسالكها تعباً.

و باريز حفظنا الله عروس شقراء، عيونها زرقاء، أخلاقها خرقاء.

مشاهدها عظيمة، روائعها كريمة، نظمها سليمة. عدلها تنوير، ديمقراطيتها تزوير. غريب أمرها، منقذة للأموات، مؤذية للأحياء.

أشجارها ظريفة، حدائقها خفيفة، أزهارها خفيفة. علومها واسعة، آفاقها شاسعة.

أعلامها عباقرة، ليسوا عربا و لا أفارقة. كتبها جمّة، شراؤها غمّة. بعد طهطاوي و طه¹²، سحرت كبار العرب، دوّختهم بالعلم و الكرب.

إذا جادت عليك علما، أودت بك هما. من هام بها هالك، و أنا في سعة عن ذلك. إذا

توختيتها منزلا، تدهور دهرك، و قوّس ظهرك، و أدهمك الغيب¹³، و لفّحك الشيب¹⁴

أدبها أرض خصبة، تفتّيك فيها عملة صعبة. اقتصادهم منعش، تبيذيرهم مدهش، ما يفضل من زاد ثلاثة منهم في جماعة، ينقذ نفسا من ذوي الجماعة.

و باريز بقعة جراد على أرضها، غل في بطنها. قوم نصفهم يقرؤن، بعضهم يفتنون،

كلّهم يهتفون. وجه يؤؤس و جوّ عبوس. يتقنون إفشاء السّلام، بخلاء في مطارحة الكلام.

و الرّجل منهم خفيف الظّهر¹⁵، عديم الظّهر.

ناطحهم ببيان خارق، خير منها واحة و سراق¹⁶، ليس فيها أرق و لا سارق.

و هي بلاد باسطة أرزاقها، بسيطة أسواقها. إن متّعت بصرك في سلعم الثّمينة، ملأت في

إبابك الطّائرة و السّفينة. و إذا ابتعت أشياء من بلفيل، حملت البغل و النّاقة و الفيل.

يذوب أورها¹⁷ أسرع من فرنكها. من غادرها سلك، و من قطنها هلك. أنام حياتهم

تطوّر و تحرير، عجم يرافقهم كلب و خنزير. ليس فيهم شفيق، لا يقربك رفيق. يعلفون خبزاً و لحماً و بطاطة، مرفوقة بالطماطم و السّلاطة.
و البلاد لذيذها غرور، و عبادها شرور، و نبذها¹⁸ سرور. يشبهني فيها الحوت، إذا غادر ماءه يموت. حذار، إن ومدت¹⁹ على وطنك نقماً، طفقت هجرتك سقماً. مثل أرض الغربة كمثّل الدّار العاجلة:

يا خاطب الدنيا الدّنية إنّها .: . شرك الرّدى و قرارة الأكدار
دار متى ما أضحكك في يومها .: . أبكت غداً، تبّأ لها من دار
فاتّضح لي أنّ الغربة وسط الأحباب و الأصحاب أجدى من الغربة مع الكلاب و الذّناب.
و حتفك بين الأعداء في حضيرتك مزّة شقيّة، و قضاؤك²⁰ وسط الأجانب مذلة جليّة.
و اعلموا أنّ من علّفته فيها أسباب النّية، اشترى لحده، و إن لم يستطع لقي بالإحراق حدّه. يا لها من بلاد، خطوبها شداد، يشخّ²¹ عليها العبسيّ ابن شدّاد".
فلماً وقف الرّفاق، و أزف²² وقت الفراق، دنوت من الرّجل سائلاً: من أنت أصلحك الله ؟ فابتسم قائلاً: يعرفني البعض بأسامي أخرى، و أنا في الحقيقة محمد أبو عماد العبّادي.

* حرّرت هذه المقامة في شهر مارس 2002 بمناسبة سفري إلى مدينة باريز في إطار التّربص القصير المدى. و لما كنت أركب القطار يوميّاً من و إلى باريز و أنا مقيم بضواحيها، جالت في خاطري أفكار و عبارات أبت إلا أن تسجّل، فداعبت القلم حتّى استقامت الأفكار متجسّدة في شكل مقامة على غرار إبداعات الهمذاني. فبعثت بها إلى السيّد عميد كلية الآداب و العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة بتلمسان.

شرح بعض الكلمات:

- 1- ليلة ليلاء: طويلة و شديدة السّواد
- 2- السّميطة: الدّجاجة المشوية
- 3- دامر اللّيل: سهره
- 4- رام يروم: طلب الشّيء و أرادّه
- 5- الحمام الذّريع: الموت السّريع
- 6- جَوَاب آفاق: المكثّر من السّفر
- 7- الإفرنك: Les Francs
- 8- بلاد الغول: La Gaule
- 9- الرّوح: الرّاحة
- 10- أمّ المكان: قصده
- 11- بلوت و سبرت: اختبرت
- 12- طهطاوي و طه: أي رفاة الطهطاوي و طه حسين اللّذان مكثا, كلّ في زمانه,

مدّة في باريز

- 13- أدهمه الغيب: ساءه الشّك
- 14- لقع الشّيب رأسه: شمله
- 15- خفيف الظّهر: قليل الأولاد
- 16- السّرادق: الخيمة
- 17- الأورو: العملة التّقديّة الأوروبيّة - L'euro -
- 18- نبذ الشّيء: طرحه, أهمله لقلة الاعتداده

- 19- ومد عليه: غضب عليه
- 20- القضاء هنا: الحثف و الموت
- 21- شخّ عليه: بال
- 22- أّزف: حان و اقترب
- 23- في خمّاره و غماره: في جمعه و لفيفه.